١٦٨ عاماً على ولادة أول مصرف في بيروت.. حكاية التأسيس والازدهار

زهير دبس

تشير المصادر وهي قليلة، إلى أنّ أول بنك تأسس في بيروت في العام ١٨٥٦هو كناية عن فرع للبنك العثماني (أوتومان بنك) ومركزه الرئيسي اسطنبول، وقد بلغت فروعه سنة ١٩١١ أربعة وخمسون فرعاً (٥٤) منها ١١ في سورية مسؤولة أمام فرع بيروت، وذلك وفق عبد اللطيف فاخوري في "جمعية تراثنا بيروت".

افتتاح ذلك الفرع المصرفي حينذاك في بيروت، وهو ظاهرة، لم يأتِ من فراغ، بل جاء نتيجة تحوّلات اقتصادية وتجارية كبيرة كانت تشهدها بيروت، وهي متصلة أولاً بصناعة الحرير التي كانت تشكّل حينها عماد الاقتصاد اللبناني، حيث تمثّلت تلك التحولات بشق الطرقات بين القرى والبلدات تسهيلاً لنقل البضائع، وبتوسعة مرفأ بيروت وإضاءة العاصمة بالغاز، وبافتتاح سكة حديد بيروت – دمشق وبتسيير الترامواي الكهربائي ورصف الطرقات واستخدام البرق والهاتف وإنشاء مدرسة وحديقة الصنائع ومنها على المستوى التعليمي افتتاح جامعة القديس يوسف، وغيرها.

فرع البنك العثماني في بيروت

ووفق مقال لزكريا الغول وهو محام وسياسي نشره في "جمعية تراثنا بيروت" تحت عنوان "بداية الحركة المصرفية في بيروت – زمن ولاية بيروت"، "فإن التنافس الأوروبي لم يقتصر على الإرساليات التبشيرية، بل تعداها إلى التجارة والمال، لتقف الرساميل الأجنبية وراء قيام مصارف خاصة بها في بيروت".

هذا ما يؤكده الباحث سمير قصير في كتابه "تاريخ بيروت" حيث يقول إنّ "بيروت عاصمة اقتصاديّة لجبل لبنان من خارجه وبوّابة سوريا، لكنّها أخذت تتجاوز وظيفتها المرفئيّة تحديداً والتجارية كذلك. إذ دفع نموُّ قطاعها التجاري إلى ظهور قطاع جديد وهو قطاع الخدمات الذي ما إن سجّل انطلاقة حتّى بدأت المصارف الأوروبيّة تفتتح فروعاً لها في بيروت وأنشئت في ساحة العاصمة بيوت للنقل والتأمين أو الخدمات".

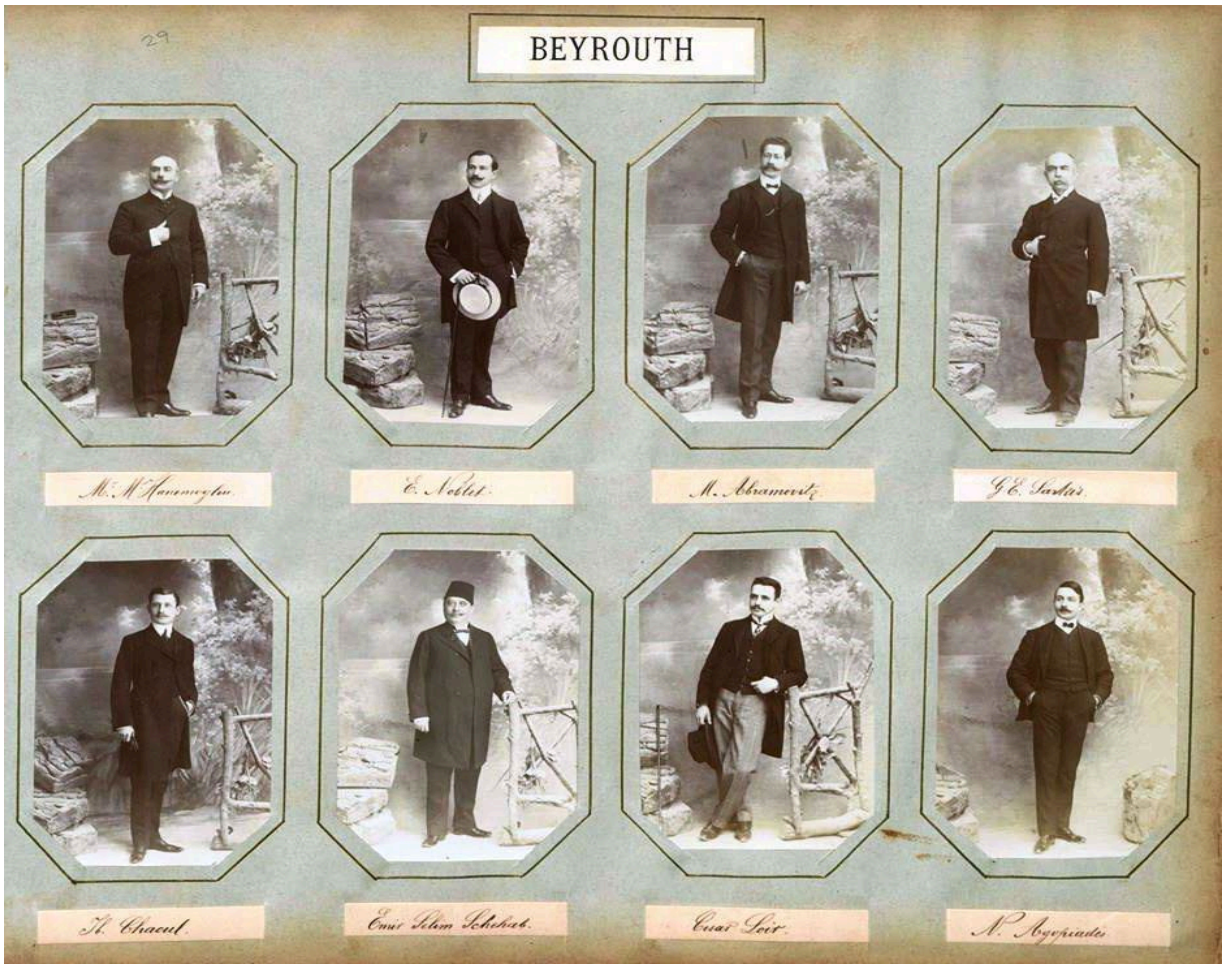

مدراء البنك العثماني في بيروت سنة 1906. (مصدر الصورة جمعية تراثنا بيروت)

مصارف أوروبية ومحلية

بعد البنك العثماني افتتحت مصارف أوروبية فروعاً لها في بيروت وعدد من المدن اللبنانية. فكان بنك كريدي ليونيه الفرنسي الذي تأسس عام ١٨٧٥في بيروت. والسبب ربط إنتاج الحرير في جبل لبنان بمصانع الحرير في مدينة ليون. كذلك اتخذ البنك الفرنسي الاحتياطي فرعاً له في بيروت سنة ١٨٨٦. وافتتح بنك دوتشي بالستين الألماني الفلسطيني سنة ١٨٨٩ فرعاً له في بيروت. ثم استقبلت المدينة فرعاً لبنك الشركة الإنكليزية الفلسطينية، الذي أسّسته سنة ١٩٠٢ مجموعة روتشيلد. وفرع لبنك ألمانيا- الشرق بعد تأسيسه سنة ١٩٠٦.
إلى جانب البنك العثماني، يقول عبد اللطيف فاخوري في "جمعية تراثنا بيروت"، "إنّ بعض يهود سلانيك أسسوا فيها سنة ١٨٨٨ بنك سلانيك، وهذا البنك فتح له شعبة في بيروت سنة ١٩١٠ في منطقة المرفأ في وكالة أرسلان دمشقية لتعاطي أشغال البانكة من خصم أوراق وتسليف دراهم وبيع حوالات على كافة الجبهات،

وأعلن رغبته بالتسهيل على متوسطي الحال لتوظيف بعض مدخراتهم، فخصص دفاتر خصوصية يقبل بموجبها دفعات صغيرة من ٢٥ غرشاً فما فوق ويدفع فائدة ثلاثة ونصف بالمائة سنوياً".

يقول فواز طرابلسي في كتابه "تاريخ لبنان الحديث"، ص ١٠٣: "كان أبناء البرجوازيّة أوثق اتصالاً برأس المال الأوروبي من خلال اقتصاد الحرير والنشاطات المصرفيّة، وتجارة الاستيراد للمنتجات الأوروبيّة المصنّعة. الأسرتان الشريكتان والمتصاهرتان، آل فرعون وآل شيحا، ممثلان نموذجيّان لتلك الطبقة البرجوازيّة الجديدة. عام ١٨٧٦ وظّف أنطوان شيحا ووالد زوجته روفائيل فرعون أرباحاً طائلة جنياها من المضاربة على الحرير الخام في تأسيس شركة تجاريّة وماليّة عرفت لاحقاً باسم بنك "فرعون- شيحا"، هو أحد أوائل المصارف المحليّة في لبنان".

ووفق الغول، فإن بنك فرعون – شيحا يعتبر من أقدم المصارف المحلية ويعود تأسيسه إلى العام ١٨٧٦ على يد فيليب فرعون، وهو من عائلة أصلها من دمشق، تنتمي إلى طائفة الروم، نزحت إلى بيروت مع مطلع القرن الثامن عشر وتعتبر من أولى العائلات التي عملت في الصيرفة في بيروت، وقد أسس هذا المصرف مع ميشال وألبير وجوزيف فرعون، وأنطوان شيحا الذي تزوج من ابنته. لذلك عرف هذا المصرف ببنك فرعون وشيحا، وإتخذ مكاناً له في ساحة النجمة ببيروت. وبعد وفاة فيليب فرعون عام ١٩١٨، عاد ابنه هنري فرعون (١٨٩٨ – ١٩٩٣) من أوروبا حيث كان يتابع دراسته لنيل الدكتوراه في الحقوق، ليتسلم رئاسة مجلس إدارة البنك ويتولى إدارته العامة طوال اثنتين وخمسين عاماً.

ويكتب غسان العيّاش: "أصحاب مؤسّسات الصرافة كانوا في الوقت نفسه يقومون بأعمال تجاريّة أخرى، لا سيما تصدير الشرانق وخيوط الحرير إلى فرنسا واستيراد البذور لتربية دود القز". "فالأموال الطائلة التي كانت تتطلّبها صناعة الحرير وتجارته اقتضت نوعاً من الاندماج بين المهنتين".

البورصة

عن تاريخ تأسيس أول بورصة والتي هي حاجة طبيعية ونتيجة لتأسيس المصارف يقول عبد اللطيف فاخوري "من أجل ذلك اجتمع في أواخر شباط سنة ١٩٧٩ في مركز الخواجات سرسق ودباس وشركاهم في بيروت جملة من ذوات البلدة وتخابروا في إنشاء "بورس" Bourse وعيّنوا لجنة مؤقتة تباشر بتهيئة ذلك، رئيسها الخواجة بيرون وكاتم أسرارها فضل الله أفندي دباس وأعضاؤها: الخواجة جيمس نكسن، بارودي، كريستيان مدير البنك العثماني، اسكندر نقولا سرسق، أبو راجي بسترس، جرجي التويني، أسعد ملحمة، أسعد رعد، إبراهيم يعقوب ثابت وموسى فريج. وقرروا في الاجتماع المذكور فتح "بورس" سمّوه "بورس بيروت" وقدّروا ما يقتضي من المصاريف لاستئجار محل وخلافه. فخضّ كلاً منهم نحو ستين فرنكاً سنوياً إذا بلغ عدد المكتتبين مائة. واعتبر المشروع في حينه من الأهمية الكبيرة لما تأتيه البورصة لتجارة البلدة من الفائدة. عقدت أول جلسة لها يوم السبت في ١٨٧٩/٣/١٥ وانتخب أعضاء العمدة العامة إدمون بيرون رئيساً. وكان من الطبيعي مع تأسيس البورصة تزايد وسطاء الأسهم وتداول مختلف أنواع النقود في التعامل التجاري.

حكاية ولادة أول مصرف في بيروت شأنه شأن العديد من القطاعات التي كانت بيروت على الدوام رائدة في احتضانها والانطلاق بها. والتأسيس هذا لا يعتبر أوّلاً في بيروت فقط بل في العالم العربي، حيث حصدت بيروت العلامة الذهبية في كل شيء، وكانت أرضها مهداً لكل جديد سواء في الاقتصاد أم في التجارة أم في الحداثة والثقافة، ولما العجب فبيروت هي منذ آلاف السنين "أم الشرائع".